



تحقيق وعد الله - التوحيد .

(028) سورة القصص

الدرس الثامن عشر - شرح الآيات 84 - 88

2019-11-15

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

العبرة بالعاقبة :

وبعد؛ مع اللقاء الثامن عشر والأخير من لقاءات سورة القصص. انتهينا في اللقاء السابق إلى نهاية قصة فارون مع قومه، وهي القصة الثانية في سورة القصص، وانتهينا إلى تعقيبه جلّ جلاله على القصة حيث يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تِلْكَ الدَّارُ الْأَخْرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

(سورة القصص: الآية 83)

هذا التعقيب الأول، وقد تحدثنا عنه في اللقاء السابق، التعقيب الثاني هو قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

(سورة القصص: الآية 84)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَتَعَى عَلَيْهِمْ

(سورة القصص: الآية 76)

(تَعَى): تجاوز حدوده بالمال الذي آتاه الله إياه، أنكر فضل الله عليه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي

(سورة القصص: الآية 78)

تغطرس وتجير فكانت نتيجته بعد أن خرج على قومه في زينته أن خسف الله به وبداره الأرض:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ

(سورة القصص: الآية 79)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ

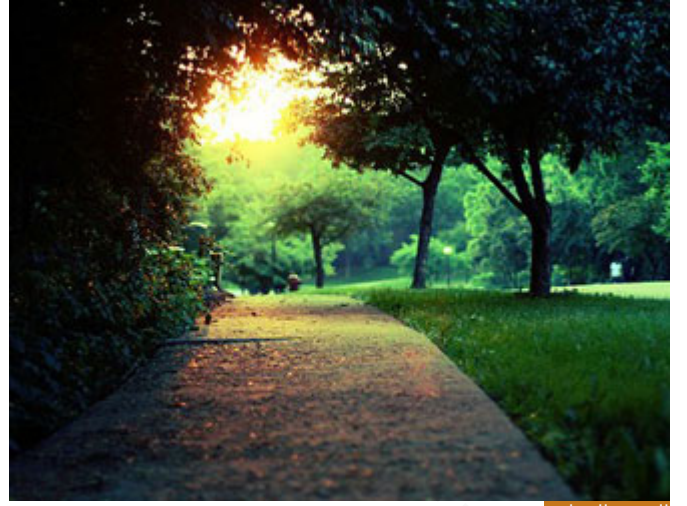
(سورة القصص: الآية 81)

فعاد الذين كانوا يتمنون أن يكونوا مكانه بالأمس إلى من ربما يحمد الله تعالى على أنه لم يكن في مكانه، لأنه:

{ ألا يا رب نفسي طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم

{

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان وسنده ضعيف]



العبرة بالخواتيم

فكم تجد من الناس في الدنيا من يظن أنه يكرم نفسه وهو في الحقيقة يهينها، وكم تجد في الدنيا من يهين نفسه في الظاهر وهو في الحقيقة يكرمها، فالعبرة بالخواتيم، فلذلك جاء التعقيب الأول: (تلك الدار الآخرة تجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً) كما كان فارون، (والعاقبة للمتقين) فالعبرة بالعاقبة، والأمور بخواتيمها لا بمقدماتها.

المراتب في العرف الرباني و العرف النبوي :

التعقيب الثاني الذي نريد الحديث عنه في هذا اللقاء:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا □

(سورة القصص: الآية 84)

{ قال صلى الله عليه وسلم: الحسنه بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعفٍ، والسئنه بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها }

(أخرجه البخاري)

الله تعالى من إحسانه أنه يكافئ على الحسنه بعشر أمثالها ويزيد، كما في الصحيح، لكنه يعاقب على السئنه بمثلها ويعفو، وهذا من تيسير الله على عباده جلّ جلاله.

{ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله عز وجل: إذا تحدثت عبدي بأن يعمل حسنةً، وأنا أكتبها له حسنةً ما لم يعمل، فإذا عملها، وأنا أكتبها بعشر أمثالها، وإذا تحدثت بأن يعمل سيئةً، وأنا أعفوها له ما لم يعملها، فإذا عملها، وأنا أكتبها له بمثلها. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قالت الملائكة: رب، ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئةً، وهو أبصر به، فقال: ائفوه فإن عملها فاكذبوها له بمثلها، وإن تركها فاكذبوها له حسنةً، إنما تركها من جرائي. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أحسن أحدكم إسلامه، فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعفٍ، وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله }

(صحيح مسلم)

لأنه في العرف الرباني وفي العرف النبوي- صلى الله على سيدنا محمد- المراتب كما يلي:



تصنيف المكافأة على الحسنات

الصف الأول: شخص أراد أن يعمل حسنة، همَّ بها لكنه لم يعملها، أي نوى نيّةً طيبة لكن منعه مانعٌ من تحقيقها، هذا تكتب له حسنة، وهو لم يعمل، لكنه نوى النية فمنعه مانعٌ عنها فهذا تكتب له حسنة.

الصف الثاني: شخصٌ نوى الحسنة ثم عملها، همَّ بها وعملها، فهذا تكتب له عشر حسنات.

الصف الثالث: إنسانٌ همَّ بسيئةٍ ثم لم يعملها، ولكن هنا نضيف لم يعملها مخافة الله، لا نقول: ذهب ليسرق فوجد الباب موصداً فلم يسرق، لا، همَّ بالسرقه لكنه امتنع عنها مخافة الله، فهذا تكتب له حسنة، هو همَّ بسيئةٍ فلما لم يعملها مخافة الله كتبت له حسنة.

الصف الرابع: شخصٌ همَّ بالسيئة ثم عملها فتكتب له سيئة واحدة.

الآية الكريمة هنا هي أصل هذا الحديث الشريف: قال تعالى: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا هِيَ) وهنا أطلق الخير، فقد يكون الخير بالعشر أو بأكثر من العشر، (فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا هِيَ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى

(سورة الشورى: الآية 36)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

(سورة القصص: الآية 84)

أي يُجزون السيئة بالسيئة، ويُجزى المحسن الحسنة بخيرٍ منها، فأنت قد تفعل حسنةً من الحسنات ولا تدري ما هو الخير الذي يأتي بعدها من الله تعالى، كل شيء سيفنى وسيزول لكن عمل الخير وعمل الشر تطويه الأيام، لكنّ فاعل الخير يسعد إلى الأبد، وفاعل الشر يشقى إلى الأبد، لذلك قيل: "فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌّ من الشر".



فاعل الخير يسعد إلى الأبد

فاعل الخير خَيْرٌ من الخير، لأنّ الخير ينقضي لكن فاعل الخير يخلد بخيره في جنّ يدوم نعيمها، فهو خَيْرٌ من الخير، أما فاعل الشر فهو شرٌّ من الشر، لأنّ الشر سينقضي ولكن فاعله سيبقى في نار لا ينفد عذابها، نسأل الله العافية.

وقيل: "بَيَّهَ الْمُؤْمِنَ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَبَيَّهَ الْكَافِرَ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ".
لأن المؤمن ينوي أن يهدي الخلق جميعاً فيمكنه الله من هداية إنسان، ينوي أن يهدي عشرةً من أصدقائه فيمكنه الله من هداية صديق، لكن نيته خيرٌ من عمله، أما فاعل الشر فنيته شرٌ من عمله، فهو ينوي أن يدمر الأرض، وأن (يُهْلِكَ الْخَزْرَ وَالنَّسْلَ) فلا يُمَكِّنُهُ اللهُ إِلَّا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فنيته شرٌ من عمله. هذه التعقيبات أنهت قصة قارون وعقبت عليها.

موعود الله يتحقق مهما طال الزمان :

الآن أتينا إلى ختام السورة في أربع آيات، وسنرى أن ختام السورة يتوافق مع بداية السورة.
كيف ختمت السورة؟ يخاطب الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فيقول له:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۗ وَالَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۗ

(سورة القصص: الآية 85)

(إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) نزلت هذه الآية كما في الصحيح في الجحفة على طريق مكة عندما كان النبي صلى الله عليه وسلم مهاجراً من مكة إلى المدينة نزل بالجحفة فنزلت عليه هذه الآية: (إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ).



هجرة النبي الكريم وجهه لوطنه

النبي صلى الله عليه وسلم خرج من مكة طريداً مهاجراً مستخفياً يريد أن يصل إلى المدينة، خرج من مكة وهي أحب البلاد إليه فهي موطن ولادته، ومرتع صباه، فهو يحبها كما يحب الإنسان وطنه، ويحبها فوق ذلك لما جعل الله فيها هذا البيت المعمور الذي أعطاه تلك القداسة، وتلك العظمة، فالنبي صلى الله عليه وسلم يحب وطنه لكن الله تعالى أراد له أن يهاجر من وطنه لبيني دولة الإسلام، الآن بطمئنه وهو خارج من مكة قال: (إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) أي سيرجعك إلى المكان الذي خرجت منه، فمعاد الإنسان هو بيته الذي خرج منه، بطمئنه قبل الخروج، متى تحققت عودته صلى الله عليه وسلم؟ بعد ثلاث عشرة سنة، لكنها تحققت لأنها موعود الله، وموعود الله لا بد أن يتحقق مهما طال الزمان.

(إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) وهو الله جلَّ جلاله.

أوجه الموازنة بين (إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) والرد إلى المعاد :

ما معنى (قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ)؟ أي فرض عليك تبليغ الرسالة، وتبليغ القرآن، (قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) أي فرض عليك أن تبلغه للناس:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ

(سورة المائدة: الآية 67)

أَمْرٌ

الأمر ضامن

فالله فرض على نبيه القرآن، ما وجه المواهمة أو المناسبة بين (إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) والرد إلى المعاد؟ وجه المناسبة أن نقول: إِنَّ الأَمْرَ ضامن، فالذي أمرك بتبليغ الرسالة سبحانه وسيرجلك إلى بلدك منتصراً فاتحاً، وقد خرجت منها الآن طريداً مهاجراً ملاحقاً، فالأمر ضامن، لا يعقل أن يأمرك إنسان بشيء ولا يضمن لك النتائج، فإن لم يضمن لك النتائج فلست ملزماً بالتنفيذ، مثلاً: لو قال لك إنسان من أهل الأرض: افعل هذا؟ قلت له: هذه مخالفة وقد أعاقب عليها، ماذا يقول لك: افعل والأمر عندي، أنا ضامن، فإن علمت صدقه فيما يقول فعلت وأنت مطمئن، لأن هناك من يضمن لك النتائج في ألا تعاقب أو ألا تحاسب، هذا في دنيا البشر، فالله تعالى عندما قال لك: (أطعني) فهو يضمن لك النتائج، وعندما قال لك: (لا تعصني) فهو يضمن لك النتائج، وعندما قال لك: تكف وادع إلى الله تعالى فهو يضمن لك النتائج، فإياك ثم إياك ثم إياك أن تظن أن الله تعالى يمكن أن يتخلى عنك.

هاجر عليها السلام يوم أسكنها إبراهيم وأسكن ابنه يوادٍ عَيْرٍ ذِي رِزْعٍ، (نادته فقالت: أَلَلَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟) هو الأمر بأن تجعلني وابني في هذا المكان الفاحل الذي لا إنس فيه ولا نبت ولا شيء؟ (قال إبراهيم: نعم)، هذا أمر الله، الآن سيده اليقين هاجر تقول له: (إذاً لا يضيعنا)، فما دام الله هو الأمر فهو الحافظ والضامن جل جلاله.



ثقة المرأة الصالحة برسول الله

تلك المرأة التي زوجها النبي صلى الله عليه وسلم لصحابيٍّ من فقراء الصحابة، لجليبيب، تلك المرأة لما سمعت أباها وأمها يتناقشان في أمر زواجهما، وأمها ترفض أن تزوج ابنتها الثرية الجميلة إلى رجل فقير دميم، لكنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يفرضه لكنه خطب هذه الفتاة لجليبيب، فلما سمعت الفتاة من خلف خدرها مناقشة أبيها وأمها في شأن زواجهما نادى: من خطبني إليكما؟ لم تقل: من الزوج؟ بل قالت: من الخاطب؟ فقالا: رسول الله، قالت: أترُدون علي رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره؟ إذفعاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لن يضيعني، فلما أخبر والدها النبي صلى الله عليه وسلم بموافقتها على الزواج من جليبيب، دعا لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "اللهم صب عليها الخبز صبا ولا تجعل عيشها كذا كذا".

كذًا كذًا: أي نعباً.

فالقضية قضية (إذاً لا يضيعنا)، قضية (إذاً لن يضيعني)، لا يضيعك الله تعالى، ولا يضيعك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ عن عائشة رضي الله عنها قالت: لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِي اللَّيْلِ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا عُنْدِي، انْقَلَبَ قَوْصَعٍ رِءَاةُهُ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ،

فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، فَاصْطَلَجَ، فَلَمْ يَلْبَسْ إِلَّا رِثْمًا طَلًّا أَنْ قَدِ رَفَدْتُ، فَأَخَذَ رِءَاةَهُ رُوْبَدًا، وَانْتَعَلَ رُوْبَدًا، وَفَتَحَ

الْبَابَ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَحَاقَهُ رُوْبَدًا، فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي، وَاحْتَمَرْتُ، وَتَقَعْتُ إِزَارِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِبْرِهِ، حَتَّى جَاءَ التَّبِيعُ فَقَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ،

ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ، فَأَسْرَعُ فَأَسْرَعْتُ، فَهَزُولُ فَهَزُولْتُ، فَأَخْصَرْتُ فَأَخْصَرْتُ، فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلْتُ، فَلَيْسَ إِلَّا أَنْ اصْطَلَجْتُ،

فَدَخَلَ، فَقَالَ: مَا لِي يَا عَائِشُ، حَسْبًا رَابِيَةً؟ قَالَتْ: فُلْتُ؛ لَا شَيْءَ، قَالَ: لَتُخَيِّرَنِي أَوْ لَتُخَيِّرَنَّيَ اللَّطِيفُ الْخَيْرِيُّ، قَالَتْ: فُلْتُ؛ يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا

أَنْتَ وَأُمِّي، فَأَخْبِرْتُهُ، قَالَ: فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي؟ فُلْتُ: نَعَمْ، فَاهْدَيْتَنِي فِي صُدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعْتَنِي، ثُمَّ قَالَ: أَطْنَبْتُ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْكَ

وَرَسُولُهُ؟ قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمُ النَّاسُ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ، نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّ جَبْرِيْلَ أَتَانِي جِبْنَ رَأَيْتِ، فَتَادَانِي، فَأَحْقَاهُ مِنْكَ، فَأَجَبْتُهُ، فَأَحْقَيْتُهُ مِنْكَ، وَلَمْ يَكُنْ

يَدْخُلُ عَلَيْكَ وَقَدْ وَضَعْتَ تِيَابِكَ، وَطَنْتُ أَنْ قَدْ رَفَدْتُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوْفَطَلَ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْجِحَنِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَا مُرُوكَ أَنْ تَأْتِي أَهْلَ التَّبِيعِ

النبوة رحمةٌ من الله لأنها تأتي لهداية الناس ولإسعادهم في الدنيا وفي الآخرة :

ثم يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ

(سورة القصص: الآية 86)

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) هذا استثناء منقطع.

ما معنى استثناء منقطع؟

الاستثناء المتصل أن تقول: جاء الطلاب إلا أحمد، أحمد طالب لكنه لم يأت، فاستثنينا أحمد من مجموعة طلاب، لكن عندما تقول: جاء الطلاب إلا حقائبهم، فالحقائب ليست طالباً أو طلاباً، فهذا استثناء منقطع، فالمستثنى بإلا ليس جزءاً من المستثنى منه، فيسمى استثناءً منقطعاً، كقوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ

(سورة الكهف: الآية 50)

فسجد الملائكة (إلا إبليس) إبليس ليس من الملائكة، (إبليس كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) ولو كان من الملائكة لما عصى ربه، فإبليس ليس من الملائكة فهو من الجن، لكن لما قال: (إلا إبليس) فإبليس استثناء منقطع لأن ما بعد (إلا) ليس جزءاً مما قبلها، فهذا الاستثناء منقطع.
(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) أي ولكن (رحمةٌ من ربك) أي ولكن كان هذا الإلقاء للقرآن عليك رحمةٌ من الله تعالى لك.



اختار الله لنبية الكريم

هذا يعلمنا درساً، النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتطلع إلى أن يُلقى إليه الوحي (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ) لم يكن صلى الله عليه وسلم يرجو ذلك، لم يكن يتطلع إليه لكن الله اختاره.

كتعقيب لطيف: أنت إن كنت مديراً أو كنت في مكان قيادي، حاول أن تبحث- هذا تعقيب وليس تفسيراً انتهوا- عن الشخص المناسب لتضعه في المكان المناسب، أما من يطلب منك دائماً أن تمكنه، وأن تضعه في مكان ما، يتطلع إلى الإمارة، يتطلع إلى الإدارة، يتطلع إلى القيادة، فليس دائماً هو المكان الصحيح له، وغالباً ما يكون ليس مكانه الصحيح، عندنا استثناء واحد في القرآن يوسف عليه السلام:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۚ إِنِّي خَفِيفٌ غَلِيمٌ

(سورة يوسف: الآية 55)

لأن الطامة كبيرة، ويوسف عليه السلام قادر على أن يدبر الدفة الاقتصادية في هذه البيعة العجاف بأحسن إدارة، فهو يملك الخبرة (عليهم) وهو (حفيظ) مؤتمن، أي (القوي الأمين)، فلما وجد في نفسه القوة والأمانة فما تركها لغيره (قال اجعلني على خزائن الأرض) لكن النبوة هي اختيار واصطفاء من الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ * أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ

(سورة الزخرف: الآية 31-32)



النبوة رحمة من الله

فأله سمي النبوة رحمة كما في هذه الآية: (إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) فالنبوة رحمة من الله، لأنها تأتي لهداية الناس، ولإسعاد الناس في الدنيا وفي الآخرة، لذلك قال: (وَمَا كُنْتُ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ) أنت لم تتطلع ولم تتشوف إلى أن تكون نبياً، لكن ذلك كان رحمة من الله تعالى بك وبالناس الذين استدعواهم إليه، رد فعلك على هذا العطاء العظيم من الله، ما رد فعله؟ قال: (فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِّلْكَافِرِينَ) لا تقف ظهراً: أي يقف ظهراً إلى ظهر، مسانداً لهم (فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِّلْكَافِرِينَ) أي لا تقف في صفهم، ولا تظاهرهم، ولا تساندهم، ولا تعطهم التنازلات من دينك من أجل أن يرضوا (فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِّلْكَافِرِينَ).

العلاقة بين ختام السورة و مبتدئها :



انتصار إرادة الله عز وجل

قلنا: إن ختام السورة يتناسب مع مبتدئها، قيل أن تتابع الآيات المتبقية، ما العلاقة الآن بين الختام والمبتدأ؟ (إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۗ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ، بداية السورة تحدث عن إرادة الله، وبين إرادته جل جلاله من خلال قصتين: قصة موسى مع فرعون، وقصة فارون مع قومه من بني إسرائيل، قصتان، وفي القصتين تجلت إرادة الله القاهرة، كانت إرادة فرعون أن يذبح الأنبياء، وأن يستحيي النساء، وأن يجعل أهلها شيعاء، وأن يستضعف طائفة منهم، وأن يكون فاسداً ومفسداً في الأرض، لكن إرادة الله تعالى كانت: (وَتَرِيدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَتَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) فانتصرت إرادة من؟ إرادة الله بلا شك وبلا ريب، انتصرت إرادته جل جلاله فهي الغالبة.

في قصة فارون: إرادة فارون كانت العلو والفساد في الأرض (فَحَسَبْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ) فإرادة الله هي النافذة، الآن هذه الآيات تتوجه- هي سورة مكية- إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يُسام مع قومه سوء العذاب من قريش:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

(سورة البروج: الآية 8)

فلما جاء ختام السورة قال: (إِنَّ الَّذِي قَرَّصَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْهِ مَعَادٍ) أي كما ردَّ موسى إلى أمه، ثم رده من مدين وأعادته إلى مصر دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ، ومنتصراً على فرعون، كذلك ستعود يا محمد صلى الله عليه وسلم، ستعود إلى مكة التي أخرجتك، والتي نكلت بك وبأصحابك، ستعود إليها فاتحاً منتصراً كما عاد موسى إلى قومه هادياً فاتحاً منتصراً، فهذا التناسب بين المبدأ والختام.

عندما يقول جلَّ جلاله: (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) نعود إلى مبتدأ السورة (طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) يأتي ختام السورة (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ).

(فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ) تتناسب مع من كانوا ظهيراً لفرعون الطاغية (فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ) كما كان من قبلك من أنبياء الله من أولي العزم موسى عليه السلام، هذا التناسب بين المبدأ والختام.

دعوة الله عز وجل النبي إلى الثبات على الدعوة و تبليغ آيات ربه :

ثم يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ ۖ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

(سورة القصص: الآية 87)



الابتلاء يحتاج إلى صبر

(وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ) أي لا يمنعك، لا تجعل لأحد باباً لأن يصدك عن تبليغ آيات ربك (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) بعد أن بين له، أي ربنا عز وجل يأمر الآن نبيّه صلى الله عليه وسلم بأوامر، وبين له من خلال قصة مشابهة كيف كان الأمر، وكيف أصبح الكافرون والمشركون، وكيف مكن الله للمؤمنين، فالآن عندما تأتي الآيات بعد القصة بهذه الأوامر تأتي أبلغ في القلب، وأوقع في النفس، فيقول له: (وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ) أي لا تجعل أحداً يصدك عن آيات الله، واثبت على دينك، هذا ابتلاء، والابتلاء يحتاج إلى صبر، ابتلي موسى من قبلك فصبر، وأنت يا محمد صلى الله عليه وسلم تُبتلى فتصبر، فقال: (بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ ۖ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ) هذا الثبات، أي ابق ثابتاً على الدعوة إلى الله عز وجل، ولا تلتفت إلى المشككين، ولا إلى المعرضين، ولا إلى المعاندين، فإن الله قد كفاك إياهم كما كفى موسى عليه السلام المعاندين من قومه (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، الآية التي قبلها: (فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ) وهذه (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) المشرك هو الذي ترك الإخلاص في نيته، أو الإخلاص في طاعته، ترك الإخلاص في النية أو في الطاعة، والنبي صلى الله عليه وسلم كانت نواياه خالصة لوجه الله الكريم، وكانت طاعانه خالصة لوجه الله الكريم.

إخلاص النية لله تعالى :



لا يجري في الكون إلا ما يريد الله

(وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) الآن السورة تختتم بقضية التوحيد، لأننا عندما نقول: إن السورة بأكملها كانت حول إرادة الله النافذة فهذا هو التوحيد، ما معنى أن تقول: إنه لا يجري في الكون إلا ما يريد الله؟ هذا هو التوحيد، لا يجري في الكون إلا ما يريد الله، هذا هو التوحيد، فرعون أراد لكنه خسر، فارون أراد لكنه خسر، مشركو مكة يريدون، يريدون شيئاً لكن مصيرهم إلى الخسارة، هذه الآيات تنزل على محمد صلى الله عليه وسلم متى؟ وهو في طريقه إلى المدينة مهاجراً خائفاً طريداً يخاطبه الله تعالى بهذه الآيات يقول له: (إِنَّ الَّذِي قَرَّصَ عَتَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ).

يقول له: (فَلَا تَكُونَنَّ طَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ)

يقول له: (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أخلص النية لله وادعُ إلى ربك.

الابتعاد عن الشرك و الاتجاه إلى الله توحيداً :

ثم تختتم السورة الكريمة ببراعة كما هي سور القرآن كلها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

(سورة القصص: الآية 88)



معنى الربوبية

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۚ) هنا وقف لازم (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) هذا تبيان، عندما قال: (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) كأن سائلاً سأل: كيف يكون الإنسان من المشركين؟ فجاء الجواب عندما يدعو مع الله إلهاً آخر، (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) من الإله الآخر؟ المال قد يكون إلهاً آخر، الطغاة قد يكونون آلهةً أخرى، الأصنام قد تكون آلهةً أخرى، ما معنى إله؟ قلنا: هناك رب وهناك إله، طبعاً وكلاهما لشيءٍ واحدٍ وهو الله جلَّ جلاله، لكن ما معنى الربوبية وما معنى الألوهية؟ قلنا الربوبية: هي ما يأتي من الله إليك، فكل ما يعطيك الله تعالى إياه فهو من اسمه الرب جلَّ جلاله.

من ينزل المطر؟ الرب، من يعطيك مالاً؟ الرب جلَّ جلاله، من يرزقك كليتين تعملان بانتظام؟ الرب الذي يربي جلَّ جلاله، من يعطيك ولدًا؟ الرب جلَّ جلاله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فقط العبي غير العاقل هو الذي لا يؤمن بأن إلهاً خلق الكون فقط، الموضوع واضح.



الشرك يتعلق بالتوجه

لكن الآن إلى من تتوجه؟ هذه الألوهية، فمن أعجب العجب أن تقول: إنَّ الله خلقتي ورزقتني ويعطيني ويمدني ثم إنني إذا أردت شيئاً فأبني أطلبه من الطبيب، أو من العالم، أو من فلان، أو من فلان، هذا من أعجب العجب، هو الخالق والرازق ثم إذا أردت أن تتوجه تتوجه إلى غيره؟ هذا الشرك، فالشرك ليس خطأ في مفهوم الربوبية، لأنه لا ينكر الربوبية إلا الملحدون، والملحدون قد نحروا عقولهم وهم قلة، لكن الإنكار أو المشككة تكون في مفهوم الألوهية، فالشرك يتعلق بالتوجه، بالقصد، إلى من تتوجه؟ فإن كنت تتوجه إلى الله وحده فانت مؤحد، وإن كنت تتوجه إليه وإلى شيءٍ آخر معه جلَّ جلاله فهذا هو الشرك، تأخذ بالأسباب، فالأخذ بالأسباب ليس شركاً ما دامت القلوب معلقةً برب الأسباب، الأخذ بالأسباب ليس شركاً ما دامت القلوب معلقةً برب الأسباب.



ذهابك إلى الطبيب تعبدٌ

يمرض الإنسان فيذهب إلى الطبيب، هل نقول له: ذهابك إلى الطبيب شرك؟ لا، ذهابك إلى الطبيب تعبدٌ لله الذي أمرك أن تتداوى، لكن من الذي يشفي في نظرك؟ في عقيدتك؟ هل الطبيب الذي يشفي أم الله؟ فإن قلت: إنَّ الله هو الذي يشفي وأتعبد الله بالذهاب إلى الطبيب فقد أصبت عين الحقيقة، وإن قلت: إنَّ الله يشفي فلم تذهب إلى الطبيب فقد عصيت الله تعالى، لأنك لم تتداوى، وإن قلت: إنني أذهب إلى الطبيب لأن الطبيب هو صاحب الخبرة والعلم وهو القادر على شفائي فقد أشركت، فهناك شرك ومعصية، وهناك توحيد وطاعة، فأنت ينبغي أن تكون موحداً مطيعاً، فتتخذ الأسباب طاعةً، وتتجه إلى الله توحيداً، هذا هو الموقف الصحيح.

فقال: (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) المطلق على إطلاقه، من هو الإله الآخر؟ أي إله آخر تجد أنه يعطي أو يمنع، أو يخفض أو يرفع، أو يعز أو يذل مع الله تعالى فهذا من الشرك، وقد يكون الشرك جلياً وهذا معنى قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

إذا مات الإنسان مشركاً شركاً جلياً فإنَّ الله لا يغفر له شركه، وقد يكون الشرك خفياً كما هو في عالمنا الإسلامي اليوم، فالناس تعتقد أن الأمر بيد فلان، وهذا لا يقوله بلسانه، وإنما يقوله بلسان حاله لا بلسان مقاله، فتتظر في أحواله فتجد أنه متعلقٌ بفلانٍ أو فلانٍ من الناس، يطيعهم ويعصي خالقه لإرضائهم فهذا هو الشرك الخفي. (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) لا إله إلا هو) أي لا معبود بحق إلا الله، هذا معنى لا إله إلا الله، لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله، لا تعبد إلا الله، لا تتوجه إلا إليه، لا يعطي ولا يمنع، ولا يخفض ولا يرفع إلا الله جلَّ جلاله.



انشغل بما أَرَادَهُ اللهُ مِنْكَ

قيل: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ بِنَا وَأَرَادَ مِنَّا، فَاشْتَغَلْنَا بِمَا أَرَادَهُ بِنَا عَمَّا أَرَادَهُ مِنَّا" أَرَادَ بِكَ مَرَضًا، أَرَادَ بِكَ فَقْرًا، أَرَادَ بِكَ قُوَّةً، أَرَادَ بِهَذَا الْبَلَدِ حَرْبًا، أَرَادَ بِهَذِهِ الْمَمْتَلِكَاتِ تَلَفًا، هَذَا أَرَادَ بِنَا جَلَّ جَلَالَهُ، وَأَرَادَ مِنَّا؛ أَرَادَ مِنَّا أَنْ نَطِيعَهُ وَأَلَّا نَعْصِيَهُ، أَرَادَ مِنَّا أَنْ نَفْعَلَ مَا يُوْجِبُ مَغْفِرَتَهُ وَجَنَّتَهُ، وَأَنْ نَتْرَكَ مَا يُوْجِبُ عِقَابَهُ وَنَارَهُ، فَمَا الَّذِي فَعَلَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟ تَرَكَوْا مَا أَرَادَهُ مِنْهُمْ وَانْشَغَلُوا بِمَا أَرَادَهُ مِنْهُمْ، لِمَاذَا يُقْتَلُ الْأَطْفَالُ؟ مَا ذَنْبُهُمْ؟ يَا أُخِي هَذَا مِمَّا أَرَادَهُ بِكَ، انْشَغَلْ بِمَا أَرَادَهُ مِنْكَ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَنْشَغَلَ بِمَا أَرَادَهُ بِكَ، لِمَاذَا مَرَضَ فُلَانٌ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا؟ وَمَا شَأْنُكَ أَنْتَ بِأَرَادَةِ اللَّهِ؟ هُوَ الْخَالِقُ جَلَّ جَلَالُهُ، هَذِهِ إِرَادَتُهُ وَلَهَا حِكْمَةٌ، نَوْقِنَ أَنَّ أَعْمَالَهُ جَلَّ جَلَالُهُ كُلُّهَا مَعْلَلَةٌ أَيُّ لَهَا عِلَّةٌ، هَلْ تَقْبَلُ مِنْ مَدِيرِكَ فِي الْعَمَلِ لَهُ مَنَصِبٌ وَمَكَانَةٌ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا لَا عِلَّةَ لَهُ وَلَا حِكْمَةَ؟ أَبَدًا، فَكَيْفَ تَقْبَلُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَظْلِمَ أَوْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا لَا حِكْمَةَ فِيهِ؟!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا

(سورة الإسراء: الآية 43)

فَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَعْمَالَهُ كُلُّهَا حِكْمَةٌ، وَكُلُّهَا عَدْلٌ، وَكُلُّهَا مَصْلَحَةٌ، جَلَّ جَلَالُهُ، لَكِنْ قَدْ نَفَهْمَهَا وَقَدْ لَا نَفَهْمَهَا لِأَنَّ عِلْمَنَا قَاصِرٌ وَعِلْمُهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَظِيمٌ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

(سورة البقرة: الآية 216)

فَأَنْتَ عِنْدَمَا تَرِيدُ أَنْ تَنْشَغَلَ فَانْشَغَلَ بِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْكَ لَا بِمَا أَرَادَهُ بِكَ، مَا أَرَادَهُ بِكَ سَلَّمَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ فِيمَا يَكُنْ، فَمَا الْقُرْبُ وَالْإِبْعَادُ إِلَّا بِأَمْرِنَا: لَكِنْ انْشَغَلَ بِمَا أَرَادَهُ مِنْكَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

(سورة القصص: الآية 88)

لَهُ الْحُكْمُ (جَلَّ جَلَالُهُ فِي كُلِّ مَا يَجْرِي فِي الْكَوْنِ).
لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فَالْمَرْجِعُ إِلَيْهِ.
وَإِذَا قَالَ تَعَالَى: (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ سِيحَاسِبُ عَلَى الْأَعْمَالِ جَمِيعَهَا صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا، جَلِيلَهَا وَحَقِيرَهَا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا
حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا

(سورة الكهف: الآية 49)

فالمرجع إليه جلّ جلاله، وسيسأل، وسيحاسب، وسيحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.
وتختم السورة بقضية التوحيد، التي كانت القمص فيها عن التوحيد، وبذلك يتناسق المبدأ مع الختام.
والحمد لله رب العالمين

نور الدين الاسلامي